لماذا تُغزى العربية من داخل حصونها؟

أ.د. ياسر الملاح

أستاذ اللغة العربية / جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين

1- مقدمة :

لا أريدُ أنْ أبدأ في هذه المقدمة بالحديث عن تعريف اللغة وأهميتها ومركزيتها في الأسس التي تُبْنى عليها شخصية أي أمة من الأمم، فهذا موضوع متفق عليه، وأصبح ذائعا معروفا، ولا يمكن أن يختلف إثنان حول أهمية اللغة، ويكفي أن نورد فِقرَة موجزة، مما قاله (هنري بر) في تصديره كتاب اللغة لفندريس، لحسم الأمر في هذا المجال، حيث قال:" **اليد واللغة فيهما تنحصر البشرية**. نعتقد أن أول ما ينبغي أن يزاح عنه الستار...شيئان، وهما اللذان يفصلان بين نهاية التاريخ الحيواني وبداية التاريخ البشري، ونعني بهما اختراع اليد...واختراع اللغة." (1)

وقد ورد في تراثنا ما يؤكد أن اللغة آية من آيات الله الكبرى في هذا الكون، وقد علمها للإنسان ليفضله على سائر المخلوقات، وورد هذا في القرآن الكريم حيث قال، سبحانه، في سورة الرحمن:" عَلمه البيان" (الرحمن، الآية 4)، ومما لا شك فيه أن معنى البيان في السياق القرآني هنا يفيد اللغة التي هي ظاهرة إنسانية راقية تميز الإنسان من مختلف المخلوقات. فإذا كانت اللغة بعامة لها هذا القدر من الجلال، فإن اللغة العربية قد ميزت من سائر لغات البشر بأن خصَّها الله، سبحانه وتعالى، بكتابه الكريم، فقال في محكم التنزيل :" وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . **بلسان عربي مبين** ."(الشعراء، الآيات 192- 195) فمن واجبنا نحن ، العرب، أن نجعل هذا الامتياز للغتنا ملهما لنا، للغيرة عليها والمحافظة على قوتها.

وليست الغيرة على اللغة العربية مقتصرة على معلمي هذه اللغة فحسب، **بل إنها فرض عين على كل فرد من أفراد الأمة**، على الأسرة وأفرادها، وعلى دور العلم وأساتذتها وعلمائها وتلاميذها وموظفيها، وعلى المؤسسات الشرعية من دور عبادة وقضاء وأوقاف، وما يتبع هذه المؤسسات من مسئولين وموظفين وأقسام وهيئات، وعلى المؤسسات الاقتصادية من مصارف وشركات ومصانع وزراع وتجار ولجان وغرف تجارية، وعلى الدولة وما ينضوي تحت لوائها من وزارات وهيئات ومجالس. وكم أعجبت بما أعلنه المؤتمر الدولي للغة العربية، أو قل: أعجبت باتساع مساحة الخطاب، في العناوين والمحاور، الذي اتجه به إلى قطاع عريض من المؤسسات المشكلة للمجتمع

العربي، من المدارس والكليات المتوسطة، والتعليم الجامعي وأقسام اللغة العربية، والمؤسسات الإعلامية وأسواق العمل ومؤسسات المجتمع المدني، والمؤسسات الصناعية، والمؤسسات العالمية المعنية باللغة العربية، والباحثين والمفكرين، فلم يترك بعداً من أبعاد المجتمع إلا خاطبه قائلاً: أصيخوا، أيها الناس، إن لغتكم العربية تستصرخكم وتناديكم، ولا تنحاز لأدب ضد علم، ولا لعلم ضد فن، ولا لتجارة ضد زراعة أو صناعة، ولا لأي بعد من أبعاد الحياة ضد آخر، لأنها منكم جميعا، ولكم جميعا، إنها القارب المنقذ والسفينة الآمنة لمصالحكم وهويتكم، ولقد آن أوان الجد لإنقاذها، ورفع راياتها خفاقة بالعز والعلو والنجاح العلمي والتقني، بعد أن أخفق كيد الكائدين، فانكفئوا على وجوههم خائبين. لقد آن أوان التكاتف، فهذه المسالة لا تعني مدرس العربية دون سواه، ولا تعني المعجمي دون الورّاق، ولا تعني مؤلفا دون آخر، ولا تعني موضوعا دون موضوع، إنها تعنينا جميعاً : علماء اللغة، وعلماء الكيمياء، وعلماء الفيزياء، وعلماء الهندسة، وعلماء الفلسفة، وعلماء الصناعة، وعلماء الزراعة، وتعني رب الأسرة وأبناءها، وتعني الأم، وتعني التاجر، وتعني الصيرفي، وتعني البائع، وتعني راعي الغنم والبقر، وتعني سائق الحافلة، وتعني مدير محطة النفط ، ولا تستثني أحدا من واجب العناية والاعتناء بها **!** أليست الأداة التي تتفاهمون بها، وتتواصلون بها، وتتفاعلون بها، وبها تكتبون وتُصلون وتقرؤون التنزيل العظيم، وتخزنون أسراركم وتلعبون وتأكلون، فلماذا إذاً تتلكئون في نصرتها وتمعنون في خذلانها**!؟!؟**

وفي هذا البحث الذي أقدمه لمؤتمركم العتيد، ووسمته بهذا العنوان المذكور سابقا، سأحاول أن أبين كيف حافظ أجدادنا على لغتنا ولغتهم وصانوها، حتى وصلتنا صَرْحا حضاريا ممتازا، ومُسْتودعا فكريا وثقافيا، ومَعْلَما مهما من معالم شخصية هذه الأمة، ودَوْحة مثمرة دانية القطوف في مختلف أصقاع الدنيا، وما الدرر المتناثرة من نقوش وخطوط ومخطوطات إلا شاهد محسوس على ما نذهب إليه. هذا جانب من جوانب هذا البحث، أما الجانب الثاني فهو رصد مواقف الأجيال المعاصرة من هذا الصرح الذي ورثناه، وكيفية استجابتنا له، ومدى تفاعلنا معه، ومدى محافظتنا عليه، ومدى اجتهادنا في تنميته، كما نماه الأجداد وأضافوا إليه إضافاتهم التي رسمت شخصيته، فوصلنا وَفيرَ الخير، غزير الثمر، طيب الطعم والرائحة، وعذب الرَّواء، ورصد المواقف السلبية التي تؤثر على كيان هذه اللغة، وعلى شخصيتها ووجودها وصحتها ومرضها في مختلف مستويات الحياة. وأما الجانب الثالث فسينصب، بعد أن شخصنا الداء، على الدواء والحل على مستوى الفرد والمجتمع والدولة كما يطرح المؤتمر.

2- الصرح اللغوي العربي الموروث :

لقد استطاع عرب العصر الجاهلي، الذين يغلب على حياتهم طابع البداوة، أن يوجدوا بنيانا لغويا مدهشا، فشكلَ هذا البنيان قاعدة متينة لصرح لغوي قوي وراسخ. و من عجب أن هؤلاء القوم لم ينشغلوا كثيراً بالتنظير بقدر ما استغرقوا في الإنتاج الأدبي الرصين. لم يورثونا أي نظرية في النقد الأدبي، ولم يربطوا إنتاجهم الأدبي بوجود نظرية نقدية ما، كما يتخيل المنظرون للأدب في هذه الأيام، غير أن الحيرة تتلبَّسُنا عندما نقف أمام النماذج الأدبية التي أورثونا إياها، إذ نجد فيها أدبا

رصينا يلتحم فيه الشكل بالمضمون، كأنه كيان حي ينبض بالحيوية وحرارة الروح، أو كأنه لوحات رصعت بالدرر والعسجد، وفي صنعة متقنة رائقة لا تكلف فيها ولا تصنُّع. ولهذا، قد يتساءل المرء : أيهما أجدى في الحياة الأدبية واللغوية إيجاد نظرية لا تقود إلى شيء قيم أم إنتاج أدب قيم بدون نظرية؟! إن المعول دائما على الإنتاج ومستواه البديع سواء صدر عن نظرية أم لم يصدر عنها، وهذا ما فعله الناس في العصر الجاهلي، فقد عكفوا على الإنتاج اللغوي الرصين. و إذا كانت النظرية والانشغال بها سيقود إلى حياة أدبية لا طائل تحتها، كما حصل في كثير من أحوالنا الأدبية المعاصرة، فإن الإنتاج الرصين بدون نظرية هو أفضل الأحوال للغة والأدب. إن هذه ظاهرة أدبية ولغوية فريدة تشبه نظرية الخلق في صعوبة تفسيرها، وإذا كانت نظرية الخلق لا تفسير لها إلا قدرة الله، فكأن هذه الظاهرة تستأهل التفسير نفسه. ولهذه الصعوبة في التفسير رُمِيَتْ هذه الظاهرة بالانتحال كما فعل كثير من المستشرقين ومن شايعهم من المستغربين.

لَمْ تكن أسواق العرب في الجاهلية مقتصرة على التجارة وجني المال والأرزاق، بل كانت مسرحا للاحتفاء باللغة والقول الجميل. وكما هو معروف من الروايات، فقد كانت تضرب، للممتازين من أرباب القول، قبة من أدم كان يدير في ظلالها النابغة أروع حكومة أدبية، مستمعا إلى هذا أو هذه من المتحاكمين في الشعر، ثم يحكم لهذا أو ذاك، ثم تسير هذه الأحكام في فضاء واسع من الجزيرة العربية أو خارجها، فيطير صيت الشاعر الفلاني، أو ينخفض نجم الآخر. لقد حكم النابغة للخنساء فرجحت كفتها عنده على حسان بن ثابت، لأسباب سجلتها كتب الأدب، ولقد كان صنيعه في هذه السوق احتفاء لغويا من طراز ممتاز في عصر وُصِمَ بالجاهلية الجهلاء.

ولقد صدر عن هذا الاحتفاء اللغوي من القول الجميل والفن البديع، من شعر وأقوال وأمثال وقصص وحكايات، ما أمكن اعتباره قاعدة متينة لشخصية لغوية راقية كانت مؤهلة تأهيلا ممتازا، لاستقبال أكبر حدث في تاريخ الأمة العربية، وهو نزول القرآن الكريم ومجيء الإسلام. و الاستعداد لحدث كوني من هذا النوع يقتضي أن يكون حامله مدربا على الانفتاح على الآخرين، يأخذ منهم ويعطيهم، وهذا ما كان واضحا في استخدام الشعر الجاهلي لألفاظ مستعارة من الفرس والهنود والرومان، وهذا ما وجد كذلك في نصوص القرآن (2).

إن نزول القرآن الكريم كان إضافة لا تشبهها أي إضافة في الأدب واللغة والفن، فهو طراز فريد من القول الذي لا يمكن للإنسان ولا للجن أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، كما عبر عن هذا المعنى القرآن نفسه (3). وهي إضافة تقترب من السحر، كما عبر عنها أصحاب اللغة أنفسهم، حيث قال الوليد بن المغيرة كما ورد في سيرة ابن هشام (4):
" ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سِنٍ فيهم. وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، ولا تختلفوا فيكذبَ بعضُكم بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول كاهن؛ قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه؛ فقالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون

وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه، ولا وسوسته؛ قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه، وهزجه، وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار، وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم؛ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لغدَق، وإن فرعه لجناة...وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر... فتفرقوا عنه بذلك".

ومن المؤكد أن الله، سبحانه وتعالى، عندما اختار هذه الأمة، واختار لغتها لتكون لسانا للقرآن الكريم، إنما يوحي إلى كل ذي عقل بأهلية هذا الأساس اللغوي لاحتمال هذه المسئولية الربانية والتاريخية في ذلك الوقت، وفي المستقبل الذي يؤسس لحضارة جديدة أثبتت وجودها أمام حراك البشرية عبر العصور والدهور.

إن التلاحم المتين بين نزول القرآن وبين التراث اللغوي الموروث عن الجاهلية يؤكده أن تفسير هذا الكتاب لا يمكن أن يكون بمنأى عن هذا التراث، لأنه إنما أنزل لإخراج ذلك المجتمع من الظلمات إلى النور، وليحمله مسئولية إخراج البشرية كذلك من عتمة الظلام الحالك السواد إلى إشراقات النور الساطع (5). لقد أصبحت اللغة العربية تحتمل هذه المعاني الكبيرة، وأصبحت هذه المعاني الكبيرة لا تنفك عن اللغة العربية، لدرجة أن أحد الكتاب أعلن يوما بكل وضوح، فقال: أبت العربية أن تتنصر. ولم تعد مسألة هذا التلاحم تطريزا شكليا جماليا محليا فحسب، بل أضحت مسؤولية إنسانية عالمية تخشى على مصائر البشر جميعا (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(6) ، وكأنما هذا التزاوج البديع أصبح مثالا لاتحاد القول والفعل وصدور سلوك بديع في الحياة بعد تمثل آيات هذا الكتاب المعجز.

إن رجلا مثل عمر بن الخطاب، كان يُجَن جنونه، إذا رأى أحدا من المسلمين مقبلا على كتاب غير كتاب الله، لأن عمر أدرك بعمق أن هذا الكتاب، وتلك التركة اللغوية من الجاهلية، سيكونان سببا في صناعة أمة من طراز فريد، ومن المؤكد أنه رأى ببصيرته النافذة أن هذه الأمة سيكون لها مكان الصدارة في الحياة الإنسانية. ولقد استطاعت هذه الأمة، ما أمسكت بهذه الراية، قراءة وكتابة، أن تحقق رؤية عمر في اللغة والسلطان والحضارة.

ومن المدهش، أنه في العصر العباسي، وما قبله بقليل، كانت أكبر عملية تحول لغوي في تاريخ البشر، حيث تعرَّبتْ الشعوب التي كانت في ظل الخلافة، فرفد هذا التحول اللغة العربية والفكر العربي الإسلامي بروافد أثرت مضامينه وزادته تدفقا. وقد تعمق هذا التحول بفضل نظام الولاء الذي شرعه الإسلام، فيصبح أبناء القبائل العربية وأبناء الشعوب الداخلة في الإسلام، كأنهم عرب أبناء قبيلة واحدة ولاءً (7).

وإذا كان السياق يفرض علينا مزيدا من الإيضاح، فإن هذا الاتحاد الفاتن بين الخلاصة اللغوية العربية وما جاء به القرآن من لغة ومضمون، يمثل القرمة الغاذية التي على أساسها امتدت أغصان

هذه الدوحة اللغوية العربية أجيالا وأجيالا، فأتت بما يعجز الحصر عن عد نفائسه، من العرب وغير العرب الذين التحقوا بركب هذه الأمة، واعتنقوا دينها الجديد وتشربوا لسانه، وأخذوا يتنافسون في اكتسابه فكان ما أضافوه غنيا عميقا متعدد الجواهر.

وإن المدقق في هذا التراث اللغوي سيجده تراثا ليس خاصا بالإسلام والمسلمين وحدهم، ولكنه تراث يخص عناصر الأمة جميعا من مسلمين ومسيحيين ويهود وصابئة وغيرهم، لأنهم اشتركوا جميعا في صناعته. فإذا كان هذا في الماضي، وقد أكده من كتب بهذه اللغة، واقعا ملموسا، فلن يضير عناصر الأمة جميعا أن يعتبروا القرآن اليوم جزءا من تراثهم الثقافي، ثم يقبلون على قراءته للاستفادة من لغته لأنه أعظم نص كتب بالعربية؟ ولأنه كان من العوامل التي ساعدت على وحدة الأمة لغويا، ولا يمكن لمتعلم اللغة العربية أن يستغني عن ثروته اللغوية بأي حال من الأحوال. ولقد أقبل على دراسة القرآن نفر لا يستهان به من النصارى ورهبانهم، وعلماء الملل الأخرى، فنهلوا من بلاغته، واعتبروه نبعا أساسيا من ينابيع العربية الفصحى. إن هذا الكتاب كان أكبر عامل من عوامل الإلهام اللغوي والإنتاج الأدبي والفني والعلمي الذي يزخر به تراثنا الفكري، وهو مؤهل اليوم لأن يقوم باستكمال الدور نفسه في المحافظة على اللغة العربية، وإثرائها بما يشد أزرها، ويجعلها لغة عالمية بكل المقاييس.

ولتأكيد هذه الفكرة سنضرب أمثلة محدودة لهذه الإضافات التي أصبحت نجوما ساطعة متوهجة في دنيا الفكر والأدب والعلوم واللغة والفلسفة، فلْنأخذ عبد الحميد الكاتب، وسيبويه، والزمخشري، أمثلة قريبة التناول، من قافلة عريضة ارتفعت عن انتمائها الضيق المتمثل في جنس أو شعب أو قبيلة، وتمسكت بهذا الانتماء الواسع الذي جمع بين العربي والفارسي والهندي والرومي، وجمع بين المسلم والمسيحي واليهودي والزرادشتي، في بوتقة واحدة انصهر ما فيها فأخرج لنا حضارة منقطعة النظير بلسان عربي مبين.

فعبد الحميد الكاتب (8)، في رسالته إلى الكتاب، يبدل عالماً بعالم، ونعني عالم العرب بعالم العجم، ويتبنى في عالمه الجديد الدين، ويشجع على الكتابة بالعربية، وعلى تعلم قواعدها، فيقول :" ... **فتنافسوا يا معشر الكتاب، في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين، وابدؤوا بعلم كتاب الله، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثِقافُ ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها..."**(9).

وحدث عن سيبويه(10) ولا حرج، فالرجل ندب نفسه لملازمة الخليل بن أحمد، والمواظبة على دروسه في العربية، فأخرج للعالمين أعظم كتاب في قواعد اللغة العربية، وهو "الكتاب" (11)الذي اعتبره العلماء من الكتب التي ولدت كاملة، ولقد كان دستورا للغة وقواعدها كما كان الكتاب الأول (القرآن) دستورا للدين. الله! الله! **رجل من أصل غير عربي، استبدل عالم العرب بعالم العجم، ويغار على العربية، فيقعد لها في كتاب بقي طوال العصور، وحتى زماننا هذا، معجزة يستضيء به كل**

من تحدث عن النحو ومسائله، ولا يمكن لكاتب، في هذا المجال، إلا أن ينهل من عذب مائه، ويكاد يكون كل ما كتب عن النحو وقواعده، في ما بعد، نقلا عنه.

وأما الزمخشري(12) الذي تعرب هو وقومه فجاء بما يعجز عنه أصحاب اللغة أنفسهم في ضروب اللغة، ونحوها وصرفها وبلاغتها، وتعصب للعرب تعصبا يندر أن تجد مثيلا له، انظر إلى قوله:" **اللهَ أحمدُ على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجْدِ عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين...ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خَيْرة رسله وخير كتبه، في عجم خلقه ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيغا عن سواء المنهج... وذلك أنهم لا يجدون عِلْما من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بَيِّن لا يدفع، ومكشوف لا يتقنع..."(13).**

أرأيت إلى هذا الرجل الذي هو من أصل غير عربي، غير أن الله اختاره وجبله على الغضب للعرب والتعصب لهم، كما يقول في النص السابق. وقد منع نفسه من الانضواء إلى لفيف الشعوبية، وعصمها من مذهبهم الذي لم يجنوا منه إلا الرشق بألسنة اللاعنين، كما انبرى للذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها، فوصفهم بأنهم يريدون خفض ما رفعه الله، ويعاندون إرادة الله التي لم تجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه، وهم ينابذون الحق الأبلج ويزيغون عن سواء المنهج. إنَّ من يقرأ هذه السطور، وهو عربي، يخجل من نفسه المقصرة في حق العرب والعربية، وإذا لم يكن لدي شيء حسن أقدمه أفلا أعير الأمة سكوتا وصمتا، بدلا من الشتم والتجريح؟!؟

ولو أن المجال يتسع لملأت صفحات وصفحات، للتحدث عما أبدعه أصحاب الملل الأخرى باللغة العربية، من أدب وكتب ومصنفات تعتبر من مفاخر هذا التراث ولبناته المتينة، وكانوا مواطنين يعيشون في جو من التسامح المدهش، كالأخطل وأبي إسحق الصابي وحنين بن إسحق وغيرهم.

هذا عن العلماء، وهو الأهم، لأن الإنسان إذا لم يكن الأهم في أي حضارة، فبئست تلك الحضارة. فماذا عن الكتب والتصانيف التي ألفت بالعربية؟! وماذا نقول في شيوع المكتبات الخاصة والعامة؟! ولم يكن ذلك في علم دون سائر العلوم، بل شمل التأليف المعارف كلها، فهناك مؤلفات في اللغة ونحوها، وفي المعجمات، وفي الأدب والشعر، والأخبار والجغرافيا، والفلك والنجوم، والهندسة والرياضيات، والطب والزراعة، والأغاني والنوادر، والشريعة والفقه، والتفسير والحديث، والفلسفة والحكمة... وإن المتفحص في ما ألفت فيه الكتب يكاد يتخيل كثرة الكتاب المبدعين، ويكاد يتخيل أن الناس، في تلك العصور، لم يكن لهم شغل إلا الكتابة والتأليف.

ولو تصفحنا كتاب الفهرست لابن النديم(14)، أو كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة(15)، أو غيرهما من المؤلفات التي تعنى بالتصانيف وأنواعها، لانْبَهَرْنا انبهارا من كثرة ما كتب، ومن أحجام المؤلفات إذ يبلغ المؤلف أحيانا أجزاء كثيرة كبيرة الحجم، فنعجب قائلين: كيف تسنى لهؤلاء كل هذا على صعوبة الحصول على الورق والمداد، وعلى صعوبة العيش وشح وسائل الراحة**!؟!** إذا تخيل أحدنا هذا يكاد يتصور كأنما الكاتب نذر نفسه لأمر واحد هو الكتابة لا غير. وانظر إلى الخليل بن أحمد، رحمه الله، عندما جاءه رسول الخليفة يطلبه إليه ليؤدب أولاده، وكان الناس يتسابقون على أبواب الخلفاء، فلم يقبل الرجل دعوة الخليفة، ثم قال لرسوله :" قل لصاحبك: إننا في شغل عن هذا"، يقول هذا، وقد كان يعيش في خص من أخصاص البصرة، ليس له مطلب في هذه الدنيا إلا العلم وإرضاء الله (16).

ولم تقتصر العناية بالتأليف واقتناء الكتب على صقع دون آخر، بل إن الرغبة فيهما شملت كل مكان رفرف عليه علم الدولة الإسلامية، سواء أكان هذا في العراق أم كان في فارس أو الهند أو مصر أو الشام أو المغرب العربي أو الأندلس. وحسبك أن تتخيل هذا الأمر إذا عرفت أن الكتب في بغداد وحدها جعلت التتار، عندما دخلوا بغداد فأذاقوها الأمرين، يبنون على نهري دجلة والفرات جسورا لخيولهم وعرباتهم من الكتب والمؤلفات، فاصطبغت مياه النهرين شهرا ونيفا بالسواد لكثرة ما أذيب فيهما من الحِبْرِ الذي كتبت به الكتب.

يا للخسارة **!** يا للنكبة النكباء **!** يا للهول **!** خلاصة ذوب العقول في ستة قرون أو نيف من التأليف والكتابة ذهبت سدى **!!** و لولا أنْ منَّ الله علينا، فألهم الناس في ذلك الزمان النَّسْخ الذي به تضاعفت أعداد النُّسخ من الكتب، فحُفظ كمٌّ كبيرٌ منها في مصر والشام والأندلس والهند وفارس وغيرها، لضاع التراث العربي والإسلامي كله. وعلى الرغم من هذا، فإن الكم الذي حفظ لم يكن قليلا، وأكبر شاهد على هذا ما تمتلئ به مكتبات العالم اليوم من مخطوطات نادرة تنتظر من يرفع عنها الضيم والغبار، فيعيد تحقيقها ونشرها من جديد.

والسؤال المهم، الآن، كيف استطاع أجدادنا عمل هذا كله؟
وللاختصار نقول : إن هذه الأمة ترَبّتْ على وجوب القراءة، وأعْلَتْ شأن العلم والعلماء، ثم رَبَّتْ ناشئتها على هذا السلوك، وفرضت قراءة القرآن خاصة في الصلاة وغير الصلاة، والقرآن في بلاغته وسمو بيانه لا يدانيه كلام أو شعر، فهل نستغرب إزاء هذا أن نرى الفتى يشب على الفصاحة ويفارق الدنيا عليها **!؟!**، و لا ريب في أن مجتمعات كهذه لا يمكن إلا أن تدفع دفعا إلى حب اللغة والتأليف فيها.

ولم يقتصر الأمر على ما كتبه أبناء الأمة من تصانيف، بل زادوا على هذا رغبة منقطعة النظير في الاطلاع على علوم الأمم الأخرى وثقافاتها، فأخذوا ما رأوه مناسبا لأخلاقهم و متفقا مع دينهم، وتركوا ما لم يرغبوا فيه لمخالفته سنن التوحيد، كما حصل مع المسرح اليوناني الذي يشيع في نصوصه تعدد الآلهة. وقد طوعوا لهذا الأمر أسباب الترجمة، فما كان من المأمون إلا أن بنى بيتا

سماه "بيت الحكمة "(17) لترجمة الكتب الأجنبية. وقد بلغ شغف الخلفاء العباسيين باقتناء الكتب اليونانية أن استبدلوا الكتب بأموال الجزية من البيزنطيين. وإذا أردنا الاختصار في تسبيب ما كان من نجاح على صعيد اللغة والتأليف بها، حتى غدا هذا النجاح صرحا حضاريا لا يبارى، قلنا: إن الثالوث الذي تربت عليه أجيال الأمة، وعاشت في كنفه، كان على رأس الأسباب التي قادت إلى صناعة هذا الصرح اللغوي والثقافي والفكري، وتنميته والمحافظة عليه، ويتألف من :

1) العلم والقراءة اللذين كانا فرضَ عينٍ على كل فرد في الأمة،
2) وعزة السلطان العربي والإسلامي وإجبار القائد على أن يكون قدوة في القراءة وطلب العلم، ولا يضير الأمر وجود سلاطين يشذون عن هذه القاعدة العامة، بل إن أجمل ما كان يزين به القائد مجالسه هم أهل العلم والأدب، وهذا واضح عند عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الملك بن مروان والمنصور وسيف الدولة وغيرهم، وقد بلغت فصاحة هؤلاء القادة حدا أصبحت فيه توقيعاتهم على الرسائل الرسمية فنا من فنون النثر العربي،
3) والعدل والتواضع اللذين حببا الناس في العرب، فدخلوا في دين الله أفواجا، واتخذوا لسانهم لسانا لهم، ليقرؤوا به القرآن، وليؤلفوا به الكتب.

3- موقف العرب هذه الأيام من هذا الصرح الموروث :

فماذا كان موقفنا إزاء هذا الصرح العلمي واللغوي الذي ورثناه عن سلفنا؟

نحن لا ننكر أن الأمة خضعت لنواميس كبرى مزقتها، وأضعفتها، وحكَّمت الآخرين في رقابها، غير أن هذا لا يمنع من أن نقوم بواجبنا تجاه هذه الذخائر التي هي خلاصة وجودنا على وجه البسيطة، ولولا هذه الذخائر لما كان للعرب مكان تحت الشمس.

لقد حفظنا هذا التراث في دور الكتب، ولم يسلم هذا الحفظ من الجهل والغفلة لأن المستشرقين كانوا عندما يزورون البلاد العربية والإسلامية كانوا يجدون بائعي الترمس يلفون أوراقا قراطيس يبيعون فيها الترمس والحمص، وغير ذلك مما كان يبيعه الباعة. وما زالت هذه العادة موجودة في بعض الأزقة والحارات من البلاد العربية، ولكن، بدلا من تلك الأوراق التي أنقذها المستشرقون لأنها كانت مخطوطات، أخذوا يصنعون القراطيس من الجرائد أو بعض أوراق الامتحانات. ولذلك عندما كان ينظر المستشرق في تلك الأوراق فيجدها ثمينة، كان يطلب من البائع أن يبيعه الكتاب الذي كان يُقرْطِسُ لزبائنه منه، ثم يطلب منه المزيد إن كان يدخر من هذه المخطوطات.

نحن جميعا نعرف أن أعدادا كبيرة من المخطوطات النفيسة أخذت بهذا الأسلوب، وهي الآن محبوسة في مكتبات أوروبا وغيرها من بلدان العالم. وبدلا من أن نطور نحن، أصحابَ هذه الكنوز، أسلوبا علميا لصيانتها، لم نقم بواجبنا نحوها، و لكن أولئك الناس قد درجوا على صيانتها من تقلبات الجو والأرض، وأخيرا استعرنا أساليبهم لحفظ ما عندنا من مخطوطات. وإني أعرف بيوتات في القدس وغيرها يدخرون مخطوطات من أنفس المخطوطات، ولكنهم يحبسونها في بيوتهم، ولا يسمحون لأحد أن يطلع عليها، وإني لأخشى أن يأتي يوم فلا نجد شيئا منها من نوازل

الدهر أو الأرَضَة، لأنها غير محفوظة بأسلوب علمي يحافظ عليها ويحميها من عوادي الدهر. وبمناسبة الحديث عن المخطوطات، أفليس من اللازم اللازب أن يُشكَّلَ فريق عمل لإنقاذ هذه الكنوز ونشرها، إما على مستوى كل قطر من الأقطار العربية والإسلامية، وإما على مستوى هذه الأقطار جميعا؟!؟ إن هذه الكنوز هي روحنا، وجوهر وجودنا الفكري بين الأمم، فمن ذا الذي يضحي بروحه ليبقيها في الأسر سنوات !؟!

ولكن، ما الذي يدفع الناس، الآن، إلى صيانة هذه المخطوطات وغيرها من ذخائر الصرح الثقافي العربي الإسلامي، ونحن تتلبَّسَنا جملة من الأمراض الفتاكة التي لا يمكن لها أن تصنع جيلا يحافظ على لغتنا وكنوزنا، أو على وجودنا، أو على عزتنا؟

ويمكننا التحدث عن بعض هذه الأمراض وليس كلها، كالتربية البيتية، وتدني مستوى التعليم، والانجراف نحو التغريب، والهزيمة النفسية، والاستهانة بالعربية، وإهمال الدين، والإعلام، والفساد المالي والإداري، لنرى كيف نمكن لغزو العربية من داخل حصوننا !!!

ـ التربية البيتية:

لا يختلف إثنان على أن الأغلبية من الناس في البيت العربي لا تلتفت كثيرا إلى تربية النشء وإعداده لمسؤولية كبيرة تجاه لغته وتجاه نفسه وتجاه أمته وتجاه الإنسانية، ولا ريب في أن هذا التعميم يُسْتثنى منه من يؤدون دورهم في هذا المجال، وهم نفر لا يُسْتَهانُ به . فالبيت العربي بيت ممزق فكريا وثقافيا، وليس أمام الجيل إجابات شافية عن تساؤلات فكرية وحضارية واجتماعية، لأنهم لم يُعدوا لهذا إلا من عصم الله. ولذلك تجد في البيت من يتجه اتجاها اشتراكيا، وآخر يتجه اتجاها إسلاميا، وثالثا يتجه اتجاها عبثيا.. وهكذا. وأين هذا البيت من البيت في عصر الراشدين، أو عصر الأمويين، أو عصر العباسيين، إذ كانت أسس التربية واضحة ومتفقا عليها، والأهداف واضحة، والوحدة البيتية واضحة إلا ما ندر. نحن لا نزعم أنهم كانوا ملائكة لا يخطئون، ولكن النتائج التي انتهت إليها الأمة في سلطانها وثقافتها وعلمائها وازدهارها تدل دلالة واضحة على أنهم أعطوا وأنتجوا، ونحن لم نفعل شيئا كما فعلوا، ولم نحافظ على ما قدموه لنا إلا محافظة شكلية قشرية، ولئن استمر وضعنا على هذا النحو، فإننا نعلن بكل وضوح: **إننا في خطر، وإن لغتنا في خطر.**

إن أهم ما يُرَبَّى عليه النشء في البيت العربي هو الحفاظ على مصالحه الذاتية التي تحفظه من الخطر، وتجعله الناجح في دروسه، وتدفعه إلى المتعة واللذة، ولذلك درج بين بعض العامة عبارة: **والله ما بستفيد الواحد من هالحياة إلا اللي بوكله وبشربه**، كما أن هذه التربية لا تشجعه على التضحية في سبيل الآخرين، بل تؤكد على أنانيته، ومرة أخرى نردد إلا من عصم الله. كم امرأة تتصرف، كما تصرفت الخنساء، عندما جاءها خبر أولادها الأربعة وزوجها، عندما قالت: الحمد لله الذي شرفني بموتهم جميعا في سبيل الله؟! إن هذا النمط موجود، ولكن وجوده قليل قليل،

وليس ظاهرة غالبة، ولا ينطلق من تربية عليا في المجتمع. وإن لذلك أسبابا لا نبغي أن نخوض فيها الآن، ولو كانت التربية غير التربية لكان حصادنا غير الذي نجنيه هذه الأيام.

-التعليم:

ولا يختلف إثنان كذلك على أن التعليم في العالم العربي متدنٍ بصورة مخيفة وخطرة، وإذا كانت الولايات المتحدة الأميركية قد أعلنت، في تقرير لها، عام 1983 أنها "أمة في خطر"(18)، لحصرها مشكلات الأمة الأميركية في التعليم، ونوعيته الرديئة التي يتلقاها الطلبة، وانخفاض مستواهم العلمي والثقافي، واتهام المعلم نفسه بالمسئولية عن هذا، فإن صدور تقرير كهذا التقرير، من أعظم دولة وأغنى دولة في العالم، يدل على محاسبة ومراجعة للذات وصراحة منقطعة النظير. إن أمتنا أحوج من غيرها إلى هذه المحاسبة والمراجعة والنقد الذاتي، لأن تقارير الأمم المتحدة، حول التنمية الإنسانية في العالم العربي، عام 2001 و 2002(19)، وما قبل هذين التاريخين، وما بعدهما في التعليم وغيره، تشير إلى أن العالم العربي وصل إلى مستوى من التخلف لا يطاق. وعلى الرغم من أن بعض التقارير تشير إلى بعض التحسن من حيث الإنفاق على التعليم، وارتفاع نسبة طلبة المرحلة الابتدائية في المدارس، فإن أحد هذه التقارير أورد أن هناك عشرة ملايين طفل في العالم العربي بين سن 6 و 15 سنة هم خارج نظام التعليم، وأن نسبة الأمية في هذا العالم ما زالت مرتفعة، وأن هناك أدلة كثيرة على انحطاط نوعية التعليم، وهذا كله يعني أن اكتساب المعرفة وبناء القدرات العلمية والإبداعية لأبنائنا متدنية جدا.

وممّا يَجْدُرُ ذكره هنا، أن التقرير الأميركي الذي ذكرناه سابقا، أكد على أن من أسباب النهوض بالتعليم ورفع المستوى الأكاديمي للمتعلمين في أميركا، الاهتمام باللغة الإنجليزية ورفع شأنها عند الطلبة والمدرسين. أفليس يَجْدُرُ بنا أن نعلن من هذا المنبر، أن من أهم أسباب النهضة بالتعليم في بلادنا العربية، وارتفاع المستوى الأكاديمي المتدني في المدرسة والجامعة، الاهتمامَ باللغة العربية لأنها آلة الفكر والتفكير، ولأن اللغات الأخرى أدوات اتصال معرفي فقط **!؟!**

وإذا كان التقرير الأميركي يُحَمِّلُ مسؤولية تدني مستوى الطلبة الأكاديمي للمعلم نفسه، فإننا نحن، في العالم العربي، نحمل المسؤولية كذلك للمعلم، على الرغم من أن المعلم العربي ليس في أوضاع مريحة من الناحية الاقتصادية والمجتمعية والمهنية، غير أن هذا لا يعفيه من المسؤولية. فالمستوى المهني لطلبتنا في اللغة العربية مستوى متدن جدا، ولا يمكن لأحد أن يرفع هذا المستوى أو يصلحه إلا المعلم، لأنه هو من يدير عجلة التربية في الميدان، وهو الذي يمثل القدوة لهذا الطالب الذي هو في مرحلة بناء.

-الرغبة الجامحة في التغريب:

عندما احتل نابليون مصر سنة 1798(20)، ورأى الناسُ ما عند الفرنسيين من أدوات الحضارة، انبهروا بما رأوا حتى أفقدهم صوابهم وتوازنهم وثقتهم بأنفسهم، وانتهوا إلى أن هؤلاء الفرنسيين لا

يمكن موازنتهم بالعالمين العربي والإسلامي، فهم متفوقون جدا، وهذان العالمان متخلفان جدا. ومن الطبيعي أن يفيق هذان العالمان يوما من الذهول، ثم يجدان النفس والهوية والقدرات، غير أن ما حصل، لافتقاد القيادات الواعية، أن هذين العالمين انجرفا انجرافا خطرا نحو التغريب، وأخذ القادة، الذين يُسَيّرون دفة الأمور في هذه المجتمعات، يعتقدون أن مسار النهضة لا بد أن يبدأ من أوروبا، وقصة البعثات العلمية التي كان يوفدها محمد علي إلى فرنسا مشهورة، كما أخذت المجتمعات تتفلت شيئا فشيئا من المظاهر المميزة لها حضاريا كما حصل في موضوع المرأة ولباسها.

إن هذا المسار الخطر أوجد أجيالا من العرب والمسلمين لا تثق بنفسها ولا ترى الحضارة حضارة إلا وفق النمط الأوروبي، ولقد بلغ الحد بالأوروبيين أنهم يخططون للتعليم في بلادنا، وهذا ما جعل الأمور تسير بالمقلوب، بدلا من المسار المستقيم للأمور. وأمر آخر تطرقنا إليه قبل قليل حول أولويات الأمور في نهضة التعليم عند الأميركيين العناية باللغة الوطنية، ولم يذكروا شيئا عن الاهتمام باللغات الأجنبية، كما نفعل نحن، والعجيب أن الاهتمام بالحاسوب اعتبروه آخر عامل من عوامل النهضة، ولكن الأمور عندنا، اعتبرت الاهتمام بالحاسوب أولا، والاهتمام باللغة الأجنبية ثانيا، وأهملت اللغة العربية، وهي اللغة الوطنية، إهمالا بينا.

إن إسناد أمورنا إلى الأجنبي حتى لا تكاد مصلحة وطنية في بلادنا تخلو من وجوده أمر مؤسف جدا، ولن يرتد علينا إلا بالخيبة. وإذا كان هناك ما يسوغ الاستفادة من الأجنبي في الأمور التي يتفوق فيها علينا، كالصناعة والتقنية، فليس مقبولا أبدا أن يخطط لتربية أبنائنا، لأن التربية روح الأمة، ولا أدري كيف تَقْبل أمة من الأمم أن يصوغ لها الأجنبي روحها(21). ومن العجيب أننا، في العالم العربي، لا نطمئن لأحد من الأجانب إلا لمن زرع لنا خنجرا في صدورنا، ولمن يحرس هذا الخنجر ويعمق وجوده في هذه الصدور.

ـالهزيمة النفسية:

إن الضعف الذي يعاني منه العالم العربي والإسلامي، في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية لا ينم عن شكيمة قوية ونفس راغبة في التحدي، كما كان أجداد هذين العالَمَيْن فيما مضى من الأزمان. كما أنه لا ينم عن عزم على البناء ومواجهة الصعوبات، بل إنه ينم عن نفسية مستخذية مهزومة مصابة بالدوار. وهذا مظهر ملموس في الإعجاب بالأجنبي، فكل ما هو أجنبي من طعام أو لباس أو صناعة مفضل على كل ما تنتجه أيدي العرب. ويمكن لكل منا إذا دقق في هذا السلوك أن يلمسه بكل وضوح، فمن المخجل أنني عندما أتجه إلى أي حانوت لأبتاع شيئا، فإن التاجر يبادر إلى ترغيبي في البضاعة، فيبادر إلى الإعلان، فيقول: إنه أجنبي. لقد لمست هذا في فلسطين، وفي مصر، كما لمست هذا في إقبال طلبة الجامعات على المأكولات والملبوسات الأجنبية، وهؤلاء هم من سيدير دفة الأمور في المستقبل القريب.

إن الملاحِظَ المدقق يجد أن المجتمعات العربية تخسر كل يوم موقعا من مواقعها الفكرية، وتخسر علامة من علامات شخصيتها المميزة، وفي هذا تركيز كبير من أعدائنا، واستجابة جامحة منا، حتى تكون الطعنة قاتلة، وقد استغل الأجانب استجاباتنا السريعة لأهدافهم، وطوعنا أنفسنا لقبول اتهاماتهم، حتى وصل الأمر بنا إلى أننا نستشيرهم في مناهجنا وسياساتنا، وهذا سلوك مشين لا يمكن لأي أمة لديها قسط بسيط من العزة والكرامة أن تقبل به.

فإذا تركنا هذا الجانب إلى السلوك واللباس فإن التحول المشين في مظهر الإنسان العربي وسلوكه، يؤكد الهزيمة النفسية التي منيت بها الأمة، ليس في هذين الأمرين فحسب، بل في أمور كثيرة جدا. إن الناظر إلى الحياة العربية لا يجدها مختلفة عن حياة الأوروبيين في كل شيء، بل إن مجتمعاتنا أصبحت سوقا استهلاكية لكل ما ينتجه الأوروبي. وإذا كان اللباس والمظهر العام، عند كثير من الشعوب، يشكل محورا وطنيا مهما لا يفرطون به، فإن التذويب أو الذوبان التراثي الوطني في عالمنا العربي في هذه المسائل وغيرها، أصبح ملمحا ملموسا بدأناه في المدارس وفي الجيش، ثم امتد إلى الحياة كلها. وإذا كان هذا الوضع قد يُغض النظر عنه في ميدان الرجل، فإن ما امتد فيه إلى ألبسة المرأة لا يمكن الإقرار به، لأنه خروج على الشرع الحنيف، وإسفاف بالشرف، وحرق للحياء.

فإذا كانت وقفتنا أمام موضوع اللغة فإن الأمر أخطر. إن أغلبية الآباء والأمهات في العالم العربي يصفقون لنجاحات أبنائهم في اللغة الأجنبية، ولكنهم لا يعيرون إخفاقات أبنائهم في اللغة العربية أي اهتمام. إن اللغة الوطنية ملمح من ملامح هوية الأمة وشخصيتها الوطنية، واللغة ليست مجرد أصوات وألفاظ ، ولكنها آلة تفكير، ومستودع حضارة الأمة وثقافتها، ومعلم من معالم الانتماء. وإني ليحزنني أن أروي عن أساتذة جامعات لا يتخاطبون مع أبنائهم في البيوت إلا بلغة أجنبية، بحجة تقوية هؤلاء الأبناء فيها، ولأنها لغة الحضارة المهيمنة هذه الأيام، ولغة العلم والتخصصات التي ترفع مستوى الإنسان في المجتمع وفي المستقبل، ولأنها السبيل إلى الدراسة في أميركا وبريطانيا، كما ذكر لي أحدهم. قد يكون هذا النفر قليلا، ولكنه سيكون مؤثرا على عامة الناس الذين ما زالوا مرابطين على ثغور الأمة حماية لشخصيتها ومقوماتها. ولقد بدأنا نلمس هؤلاء البسطاء يعلنون عن رغبتهم في تفوق أولادهم في اللغة الأجنبية، ويسعون إلى وضع أبنائهم في المدارس التي تؤهلهم لذلك، ومن المؤسف أن هذه المدارس يقوم عليها إدارات أجنبية.

وإذا كان هذا كله محزنا فإن ما يحزن أكثر ما يتصل باللغة العربية وأساتذتها. إني لا أفهم لماذا يخاطب أستاذ اللغة العربية طلبته بالعامية؟ ولماذا يسمح بمخاطبتهم إياه بالعامية كذلك؟ أن يكتسب المتعلمون اللغة الفصيحة هدف من أهداف تدريس اللغة العربية، فكيف يهدم المدرس أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها بيديه **!؟!** وكيف يسمح هذا المعلم لنفسه أن يشوه النصوص الجميلة المأخوذة من الشعر أو القرآن أو الحديث أو غيرها، وهي قمة البلاغة والفصاحة، فيشرحها بالعامية؟ وإذا كان مُعَلم اللغة العربية يفعل هذا في تخصصه، فكيف نجرؤ على مطالبة أستاذ التاريخ أو الجغرافيا أو الرياضيات أو غيرهم باستخدام الفصحى في مخاطبته طلبته؟**!** لا ريب في أن من يفعل هذا كله،

وهو يعلم أهمية اللغة، محكوم عليه بالهزيمة النفسية، وإن من يحمل هذه الهزيمة لا يرقى إلى مستوى بناء الأمة، والتضحية من أجلها، بل والدفاع عنها.

ـالاستهانة بالعربية:

أخذت ظاهرة الاستهانة بالعربية تنتشر شيئا فشيئا في المجتمعات العربية، وأكثر العناصر المتورطة في هذه الظاهرة هم الشباب والشابات في المدارس والجامعات. فمن مظاهر هذه الاستهانة الإقبال الكبير على التخصص في اللغات الأجنبية، كالإنجليزية مثلا. وإني أذكر، في أحد الأعوام الجامعية، عندما كنت مدرسا في جامعة بيت لحم في فلسطين، كان الإقبال على التخصص في اللغة الإنجليزية قد أدى إلى إغلاق بعض الأقسام في كلية الآداب، فاضطرت دائرة اللغة الإنجليزية إلى وضع معايير صارمة لتخفيف الإقبال عليها، لأن طاقة القسم لا تحتمل الاستجابة إلى هذا العدد الكبير من الطلبة. ويقابل هذا ضعف الإقبال على التخصص في العربية، أو قل كراهية هذا التخصص، كما يقول الطلبة ذلك بصراحة، ولهذا دلالة خطيرة، فكيف يكره المرء لغته ؟!؟ ومن عجب أن يكره المرء نفسه وذاته ! ولو يرى شبابنا، وهم يرون ذلك، ما تنفقه الأمم الأخرى من المال على نشر لغاتهم بين الشعوب، عن طريق افتتاح المراكز الثقافية وعن طريق السفارات، لخجلوا من أنفسهم، عندما لا يقيمون وزنا للغتهم العربية. وإن من المهم أن تفكر سفاراتنا بهذا الأمر لتنهض بواجبها تجاه لغتنا، ولتفتتح المراكز المتطورة والمؤهلة لنشر هذه اللغة بين العالمين.

ومن المظاهر الواضحة، في هذا المجال، عند الشباب، التوقيع بالأحرف اللاتينية، أي بالإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما. وقد يقول قائل: الإنسان حر في اختيار ما يشاء من تخصص أو توقيع وما شابه هذا، ونحن نقول: إننا مع الحرية، وهل هناك أجمل من الحرية في هذا الكون!؟! غير أن الحرية التي تتجاوز حدودها فتمسخ ذات المرء، وتعتدي على بدهيات الهوية الوطنية والانتماء، فهي حرية تقود إلى الانتحار.

ومن هذه المظاهر الدالة على الاستهانة بالعربية، رغبة الشباب والشابات ارتداء ملابس كتب عليها عبارات أو حروف لاتينية، وقد يكون بعض هذه العبارات ذا معنى جارح للحياء، ولكنهم يقبلون على ذلك دون علم بهذا المعنى، وهذا موقف يثير السخرية والضحك، إذ كيف يلبس المرء قميصا كتب عليه نص ما، وهو لا يعرف معنى هذا النص؟! ومن هذا القبيل إقبال الشباب على شراء أحذية كتب عليها علامة Nike المشهورة، وغير ذلك من العلامات الأجنبية. وما أكثر ما يزين السائقون سياراتهم الخاصة أو حافلاتهم بهذه الأسماء الأجنبية، وليس هناك من يعترض أو من ينتقد. رأيت مرة فتاة جامعية تحمل حقيبة خاصة كتب عليها في كل مكان منها كلمة ISRAEL مخططة بالألوان كلها، فقلت لها: ما الذي أعجبك في هذه الحقيبة؟ فلم تجب، و لم تدرك معنى نقدي لها، لأني لم ألمح أي خجل في عينيها، فقلت لها: ألهذه الدرجة أنت معجبة بإسرائيل؟! فابتسمت، ثم قالت: هذه الحقيبة أعجبتني، واشتريتها من القدس ! وفي منطقتنا نشاهد نفرا من الشباب يقود سيارته وقد أطلق لنفسه العنان لسماع أغان عبرية بصوت عال مزعج !!

ومن هذه المظاهر تسمية الأبناء والبنات بأسماء أجنبية، والأسماء عندنا، وعند غيرنا من الأمم، لها دلالات حضارية وفكرية وعقدية، ولكن كثيرا من العرب لا يبالي بهذا، فيسمي بهذه الأسماء المخالفة لثقافتنا وحضارتنا، وعندما كنت أقرأ هذه الأسماء في غرفة الصف، كنت أسأل الطلبة عن معاني أسمائهم، فكان كثير منهم لا يدري معنى اسمه أو اسمها. ولعلنا سمعنا جميعا عن قضية الأسماء في بلغاريا قبل سنة أو سنتين، فقد أعلنت الدولة هناك، أن على كل بلغاري يحمل اسما غير بلغاري، تغيير اسمه، وإلا أوقع نفسه تحت طائلة القانون. إن مثل هذا التصرف لا يمكن أن يحصل في بلادنا لأننا نقر بالتعددية ونحترمها، ولكن هذا يحدث في أوروبا التي جعلناها قدوتنا في التقدم**!؟!**

ومن هذه المظاهر تسمية المحلات التجارية بالأسماء الأجنبية، هليوبوليس أو بريستيج وما شابه من هذه الأسماء، والتاجر دائما يحرص على اختيار اسم جذاب لمحله التجاري، ولولا أن الذوق العام يطرب لهذه الأسماء الأجنبية، والتاجر متأكد من أنها تجلب الزبائن، لعزف عن هذه الأسماء. ولو قدر لأي منا أن يمشي في شوارع أي مدينة من المدن العربية، وأنا ألاحظ هذا بوضوح في المدن الفلسطينية، وكذلك في المدن المصرية والأردنية، وقد لاحظت هذا في لبنان هذه الأيام، لرأى أسماء محلات تجارية وقد كتبت أسماؤها الأجنبية بالأحرف العربية.

ومن مظاهر الاستهانة بالعربية إقبال الشباب بصورة غير مريحة على سماع الأغاني الأوروبية، فهم يعرفون المغني الفلاني أو المغنية الفلانية، ونراهم لا يكترثون لهذا الإقبال أبدا، بل يرون أنه سلوك طبيعي غير مخجل. كما أنهم لا يعيرون أي اهتمام للأغاني العربية، وإذا سئلوا عن أسباب هذا، أجابوك جوابهم الجاهز: هو عندنا أغاني ...**!!** فهم يتقززون من الأغاني العربية، فإما أن الأغنية العربية لم تفلح في اجتذابهم، ولم ترتق إلى مستوى أذواقهم، ففزعوا إلى تلك الأغاني الأجنبية، أو أن الاستهانة بكل ذوق عربي قد وصلت إلى مستوى لا رجعة فيه**!!!**

ومن هذه المظاهر استخدام الشباب والشابات عبارات التحيات باللغات الأجنبية، فكلمات مثل : sorry , Merci, thanks , hi!, hello وغيرها مما هو ذائع معروف. كما أنه بدأت تشيع، بين الشباب، هذه الأيام، لغة يطلقون عليها الأربيزية، وهي لغة كتبت عنها بعض الصحف المصرية، وقد قرأت عنها في أحد أعداد جريدة " القدس" الفلسطينية؛ إنها لغة تجمع بين الطعم العربي والطعم الإنجليزي، فلا هي لغة عربية خالصة، ولا هي لغة إنجليزية خالصة، ولكنها خليط من اللغتين، وأكثر ما يشيع استعمالها بين المتخاطبين عبر الشبكة العنكبوتية (INTERNET)، فإذا كانت هذه اللغة العجيبة ستحتل مكانة العربية فإن هذا الاحتلال سيكون الطامَّة الكبرى، وقد تخوف بعض العالِمين من هذه الظاهرة فتوقع أن تقود إلى اضمحلال العربية أو اندثارها. وإن هذا الضعف في التعبير اللغوي، والجري وراءه، عن قصد أو عن غير قصد، وعن وعي أو عن غير وعي، ليذكرنا بمأساة العربية زمن نهاية الأندلس، وذلك عندما ضعف اللسان العربي، فأخذ الناس المقهورون هناك يستصرخون قادة المسلمين في الشرق برسائل وصلت لغتها إلى أدنى مستوى من الركاكة. فماذا يمكننا تسمية هذا الأمر **؟!** إذا لم يكن هذا، أيتها السيدات ويا أيها السادة، غزوا فماذا يمكننا أن

نسميه؟ قد يسميه بعضنا تخريبا، وهذا حق، وقد يسميه آخر مؤامرة، وقد يكون هذا حقا، ولكن من الذي جلب هذا الغزو، وذلك التخريب؟ ألسنا نحن؟ ألم نفعل هذا بأيدينا؟ ألم يأت الغزو من داخل حصوننا وعلى أيدي شبابنا الذين استبدلوا الأربيزية بالعربية الفصحى؟!؟

وبعدُ، فإن المرء ليتساءل : كيف تكون أحوال هؤلاء المنفلتين من الغيرة على لغتهم ومن التمسك بها، ومن الغيرة على ثقافتهم، إذا أتيح لهم أن يديروا مؤسسة تربوية ؟!؟ أو أي مؤسسة أخرى من مؤسسات الوطن؟!؟ وهذا لا بد أن يحدث يوما ما ومن قريب، لأن الذي سيدير دفة الحياة القادمة هم هؤلاء الشباب والشابات !! فمنهم سيكون المدير أو الوزير أو الطبيب أو الرئيس أو غير ذلك من هذه المراكز الحساسة. وإن المرء ليتساءل كذلك : من المسئول عن وضع شبابنا في مثل هذا الوضع الشاذ؟ فهل الدولة مسئولة؟ أم هل الفرد نفسه مسئول؟ أم الجو العالمي؟ أم...أم...أم !!! فإذا أضفنا إلى هذه المظاهر السابقة التي يغرق فيها الفرد العربي انعدام حريته وخوفه من السلطة، وشيوع الفساد المالي، واتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء، والفجوة الكبيرة بين السلطة والشعب، أدركنا عمق الخطر الذي يهدد أي تنمية لغوية أو غير لغوية، لأن مثل هذه التنمية إن اقترحت في مؤسسة ما فلن يتاح لها، إن رأت النور، أي تطبيق سوي.

هذان واقعان متناقضان :
واقع أخلص النية فعمل عملا صالحا، وحفظ الإرث اللغوي عن أجداده في الجاهلية، ثم أضاف إليه إضافة ربانية صقلت وجوده وأعطته معنى حضاريا مميزا، ثم أطلق يد الأبناء والأحفاد من التابعين وتابعيهم في البناء والرقي، فكان علماء، وكانت مؤلفات، وكان إبداعات لا حصر لها في مختلف ألوان الفكر الإنساني، على المستوى الشعوري، والفكر التجريدي، والعلم التطبيقي. ثم دخلت في العربية شعوب بأكملها، فأعطى هذا التحول اللغوي الأمة حيوية وطاقات أثرَتْ تفكيرها واتجاهاتها وعمقت تدبيرها للحياة وأغنت مناشطها، فما أن مضت على هذا النشاط خمسة قرون ونيف حتى غدت الحضارة العربية صرحا شامخا متطاول البنيان، ويمتلئ هذا الصرح بالمضامين الخالدة التي قدمت للإنسان العربي والمسلم بخاصة، والإنسانية بعامة، تجربة حضارية فريدة إيجابية إنسانية عمودها الفقري السلام والحب والخير، ولا يمكن لأحد من الناس إنكار دورها في الحياة الإنسانية، أو أن يتنكر لإيجابيتها. وقد كان هذا في كنف سلطان قوي، وجبروت يحقق النصر تلو النصر، ويقيم وزنا للأدب واللغة والعلم، فكان لنا أمة عزيزة واثقة بنفسها ذات رسالة خالدة تكد ليل نهار لإخراج نفسها وإخراج الأمم من الظلمات إلى النور، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الديان، ومن كدر الباطل إلى صفاء الحق.

وواقع آخر مختلف نشهده هذه الأيام في العالم العربي الإسلامي، إنه عالم يتسم بجمود العقل وتوقفه عن العطاء المأمول والإبداع المسئول، إنه عالم يبالغ في الاستهلاك في كل شيء، إنه عالم اختزن تراث الأجداد في خزائن مقفلة وأخذ يتسول من العالمِين الغذاء الروحي والغذاء العقلي والغذاء المادي، ويتسول القوانين والأنظمة، إنه عالم يتقن التغني بأمجاد الماضي وهو بعيد عنها البعد كله، فيقدم بذلك نموذجا للتناقض النفسي المهين، إنه عالم يدخل في هزائم تتلوها هزائم، فمن هذا الواقع

طمعت الأمم الأخرى في ثرواتنا، وألحت على استعبادنا، ونحن بهذا قانعون غافلون غير محتجين على ما يدور إلا من عصم الله من الزيغ والضلال.

وقد كان هذا كله في كنف سلاطين أغلبهم متجبرون لم يتذوقوا طعم العدل، بل أشرِبَتْ قلوبهم وأرواحهم بالجور والطغيان، ليس لديهم رسالة نبيلة لأنهم أنانيون، ولا يتقنون الكلام فلا عجب أن لا يلتفتوا إلى أمور اللغة وشؤونها، الأهم عندهم البقاء في الحكم لجلد الناس بالسياط والتحكم فيهم تحكما قسريا، وما حدث من ثورات في تونس ومصر وليبيا واليمن وغيرها يلخص ما ذكرناه بكل وضوح. إنهم أناس لم تعد الرسالة التي حملها لهم أجدادهم ليتربوا على العز والفضيلة مطمحا من مطامحهم، أو أن ينشروا نورها في العالمين هدفا من أهدافهم، بل زادوا فأشاعوا التغريب، وصفقوا له، وتزيوا بأزيائه، وأصبح الاستخذاء والانبطاح للأجنبي هدفا أساسيا لهم، وقد أكثروا من الفساد، وإن ربك لبالمرصاد، والعاقبة للمتقين.

نعم، هذان واقعان مختلفان، فأين الثرى من الثريا **!!!**
ولا يظنن أحد أننا نتعامى عن الأمور الإيجابية، فهناك إيجابيات لا بأس بها، وهناك من يعمل بجد ونشاط، وهناك من يرفع صوته بالنصح وبالنقد، وهناك من تمتلئ جوارحه بالأمل في المستقبل، وليس عنده ذرة من يأس. وفي ميدان اللغة العربية بالذات نجد وزارات التعليم لا تدخر وسعا في التأكيد على جعل اللغة العربية هي لغة التعليم ولغة الكتاب المدرسي، وهذا في حد ذاته مَعْلم مهم جدا لإعلان بيارق الانتماء والوحدة والمنطلق والمصير المشترك لهذه الأمة. إن في حياة أمتنا هذه الأيام حركة قوية لأسباب نهضة ملموسة، ولكن النشء في هذه النهضة تائه، ويفتقد إلى أن تزرع فيه العزة، كما يفتقر إلى القدوة المؤثرة سواء أكان هذا في قمة الهرم أم كان في القاعدة، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يستمر التيه في أجيالنا أكثر مما كان. إن هناك مطلبا يلح علينا جميعا هذه الأيام: كفى ما كان من ضياع، وهامشية، وتحجر، واستخذاء للأجنبي والمحتل، ولا مناص من إيجاد الذات إيجادا مثمرا، والتصدر المنتج في العالم، ولا بد من إطلاق الحريات المسئولة، ولا بد من العزة الإيجابية التي تحترم الإنسان وحقوقه وكرامته، ولابد لليل اللغة العربية أن ينجلي، ولا بد لقيدها أن ينكسر**!؟!؟**

4- فما الحل إذاً ؟

الحل لمشكلة اللغة العربية يكمن بأيدينا. فبالإضافة إلى أهمية وجود مجتمع قوي الخُلق والانتماء الصادق، والعلم النافع، والمعاصرة الذكية الحذرة بدون ذوبان أو استخذاء، ووجود سلطان يزرع العزة في نفوس أبنائنا والهيبة في قلوب أعدائنا، **فإن الحل العملي بيد المعلم الذي يستلهم صرحنا اللغوي الموروث الذي وصفناه قبل قليل ثم يضيف إليه إضافات تدفعه إلى العطاء المتجدد والابتكار**. فالمعلم المخلص الذي يأخذ تعليم العربية رسالة يُرضي بها ربَّه، ويغار فيها على بني قومه، ويعد نفسه إعدادا علميا ولغويا، ويتكلم العربية الفصحى كلاما يصدر عن لسانه بعفوية دون تكلف أو تقعر، في قاعة التدريس أو خارجها، ويجدد في أساليبه تجديدا يجذب المتعلمين اجتذابا،

ويستفيد من معطيات العصر الفنية والتقنية، هو المعلم المطلوب لهذه المَهَمّة الكبيرة. إن مثل هذا المعلم يمكن إيجاده بيسر لأن في الأمة طاقات خير متدفقة، ولكن المطلوب استغلالها وتوظيفها توظيفا مستقيما، ولا مناص من مساعدة هذا المعلم مساعدة مخلصة عملية حتى يحقق ما يرمي إليه في مشروعه الكبير.

ولو كنت سأتخيل صورة لهذا المعلم منذ صغره، لتخيلتُ أنه سيكون وليدا يسمع من والديه اللغة العربية الفصيحة بمسئولية مُوَجَّهة، يحاورانه بالفصحى ما استطاعا إلى هذا سبيلا، وينفقان جهدا منظما في هذا المضمار مع الولد الأول، أما الثاني وما يتبعهما من أولاد فإنهم سيجدون أرضية لغوية ممهدة، ومن هذا المناخ الرائع نصنع في المجتمع خلية عربية تصدر عنها العربية كما يصدر الشعاع عن النجم، وكما يصدر اللمعان عن الجواهر. عندئذ تصبح اللغة سليقة وطبعا لا يزعزعه الاستماع إلى الآخرين، ولا يزعزعه تعلم اللغات الأجنبية. وكذلك الأمر من أستاذه الذي سيخاطبه باللغة الجميلة الفصيحة، ولا بد أن يقترب المتعلمُ من القرآن كثيرا، فيحفظ آياته أو من آياته، فيتشكل لديه ذخيرة لغوية قوية أصبحت ملكه الأبدي، ومن الطبيعي أن يكون له أتراب يشاطرونه هذه التنشئة، فيلتقي بهم ويحاورهم، ويكتب إليهم بالفصحى، ثم هم يكتبون إليه بالفصحى كذلك. ولا مفر من أن يتعلم وفق منهاج يستخدم اللغة الفصيحة في الموضوعات جميعا سواء منها الأدبي أو العلمي.

وما أجمل أن يتعاون المعلمون الذين يدرسونه الموضوعات الدراسية كلها، من تاريخ ورياضيات وفيزياء وغيرها، فيكون تدريسهم له يعكس العناية باللغة العربية الأدبية أي الفصيحة، وهذا لن يكلف المدرس أكثر من تطبيق ما في الكتاب المدرسي، فالكتب المدرسية هل ينفق عليها الملايين لتهمل!!! بل ينفق عليها لتكون أساسا لإدارة الحوار الصفي بها. حتى إذا دخل الجامعة، فاختار التخصص في العربية حبا ورغبة، ثم أخذ ينهل من نصوص اللغة ونحوها وبلاغتها وتاريخها، وإذا رزقه الله أستاذا مؤثرا، فأي جاحظ ، عندئذ، سيكون ! أو أي حافظ ! أو أي شوقي ! فهل سيكون بعد هذا كله مدرسا غير مؤثر ؟! بل إنه سيكون معلما لغويا ساحرا بحق.

إن هذا الحلم ليس صعب المنال، ولكنه مشروع طويل المدى، قد يستغرق نجاحه سنوات، ولكن البداية والإعداد له، لا بد أن ينطلق في مكان ما، وفي يوم ما، وفي بلد ما، على هيئة فريق متكامل من البيت والمؤسسة والدولة. وهو الآن مطبق، إلى حد ما، في العالم العربي، في المدارس والجامعات، غير أنه يلقى مقاومة وصعوبات وعثرات، لأن من يتحمس له ويحاول شق طريقه قلة من الأفراد الغيورين الذين تملأ قلوبهم الحماسة، ولكنهم لا يملكون إجبار الناس على هذا المنحى، ولا يجدون المناخ الاجتماعي الذي يشجعهم أو يساعدهم على تحقيق أهدافهم اللغوية. وتقل فرص نجاحه كذلك لخضوع الناس لسلطان الغزو الفكري والثقافي الذي يهيمن على عقولهم. ولا يمكن لأي غزو أن يتركك تحيى كما تشاء، ولكن واجبك أن تقاومه كما ينبغي، فالغزو اللغوي لا يمكن إيقافه إلا بمقاومة لغوية.

وقد يسألني سائل: ما موقفك من العامية التي يتخاطب بها الناس؟ إنني لست ضد العامية، فالعامية الآن لا يمكن إلغاؤها، ولكن يمكن التخفيف من هيمنتها، وتقليص الفجوة بينها وبين الفصحى، ومن الممكن عقد تصالح استراتيجي بينها وبين الفصحى، ويمكن لهذا التصالح أن يكون على النحو الآتي: لا أحد يستطيع منع أحد من اختيار المستوى اللغوي الذي يرتاح إليه، والعامية أصبح لها استقرار في المجتمع العربي، وأصبح لها جمهور ليس من السهل التنازل عنه، ولقد أدركت هذا جيدا عندما كنت أصر على طلبتي، وهم متخصصون في العربية، ومن بينهم من هم من غير المتخصصين، التحدث بالفصحى داخل المحاضرة، كنا نسير شوطا جيدا في التخاطب بالفصحى، ولكن سرعان ما يكبو أحدهم، عندما لا يقوى على التعبير، فيلجأ إلى العامية. وموضوع التصالح، في هذه المرحلة من نهوض الفصحى، يقوم على إعطاء العامية هذا الفضاء الواسع من الاستعمال: في الشارع، والبيت، والسوق، والمزاح، وغير ذلك من الفضاءات الشعبية غير الرسمية، ولا بد من إعطاء الفصحى فضاءها العلمي، أي في تدريس اللغة العربية، والمواد العلمية الأخرى، في المدرسة والجامعة. إنه من غير المقبول أن يخاطب أستاذ طلبته بالعامية في درس جل مراجعه بالفصحى، والطلبة عندما يُحَضِّرون المادة العلمية فإنهم يعودون إلى الكتب المعدة بالفصحى، فلا أدري كيف يستساغ، من أستاذ، هذا التناقض!؟! و لذلك يجب استعمال لغة العلم، في أي مجال مرتبط بهذا العلم؛ ولغة العلم، بدون أي جدال، هي اللغة الفصحى. وإذا كان المعلم قادرا على التحدث بالفصحى في المجال الذي فسحنا فيه للعامية، فلا ضير في هذا، شرط أن يُبِينَ ويجذب الأسماع إليه، ومن لم يستطع هذا فليقتصر في استعمال الفصحى على حصص العلم.

إن ما أنادي به ليس خيالا، بل إن مثل هذه الدعوة كانت حقيقة في الماضي، فعندما تعرَّبت الشعوب التي كانت تسكن المناطق التي تشكل اليوم العالم العربي، كانت اللغة العربية مؤيَّدة من الجميع، وكانت هي لغة الخطاب اليومي ولغة العلم، حتى إن الشعوب التي أصبحت تحت الحكم العربي الإسلامي أخذت تتسابق على تعلم العربية، ولم يستطع رؤساؤهم، من رجال دين وغيرهم، منع الشبان من ذلك على الرغم من تشكيهم المر من هذا الأمر. يقول ألفيرو القرطبي أحد قساوسة المسيحيين في الأندلس(22):" إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا. وأين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟... يا للحسرة !! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم... ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب... يا للألم!! لقد أنسي النصارى حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا". وهذه التجربة موجودة الآن في أوروبا، فالألماني لا يتنازل عن الحديث بلغته، وكذلك الفرنسي، وهم متجاورون في مساحة ضيقة ويمتزجون ببعضهم امتزاجا كثيفا، ولكن لكلٍ منهم لغته العلمية، فلماذا إذاً لا يكون للعلم لغته وللحياة لغتها !! أملا في انعدام الفجوة بين اللغتين في المستقبل عندما يكثر المتعلمون.

وقد يتساءل آخر فيقول: متى يتحقق ما تنادي به؟ إن من الصعب التنبؤ بالنتائج، فهذا مرتهن بعوامل كثيرة، ولكن من الملاحظ أنه بدأ، ففي الصحافة والإعلام بشكل عام، وفي كثير من المناسبات العلمية، يتخاطب الناس بالفصحى، ولكن هذا المنهج يحتاج إلى تشجيع حتى تتسع مساحته، وحتى يصبح عرفا اجتماعيا لا يعكر صفوه من لا يقيم وزنا لضرورة إعطاء اللغة مكانتها اللائقة أو دعاة العامية الأبدية.

ولمساعدة المعلم في أن ينجح في مسعاه، لا بد من قيام البلديات بلجم هؤلاء الذين يسمون دكاكينهم تسميات أجنبية، فهم بأعمالهم هذه يلوثون المناخ اللغوي، ويلوثون عقول النشء في ما يحاول معلم اللغة بناءه في عقول التلاميذ وأذواقهم، وهو ما يمكن تسميته بالحاسة اللغوية المستقيمة. إنني أدعو البلديات العربية، من هذا المنبر، إلى عدم منح هؤلاء رخصَ مزاولةِ المهنة إلا بعد أن يسموا محلاتهم بأسماء تلائم الذوق اللغوي العربي، وليس هذا صعبا أو مستحيلا أو تعجيزا، وفي هذا فليتنافس المتنافسون. كما أنني أدعو المؤسسات جميعا، ومنها البلديات، أن تكون لديهم وظيفة بعنوان " المراقب اللغوي ". ويمكن لهذا المراقب أن يصحح العيوب اللغوية في الرسائل الصادرة عن المؤسسات، وأوراق العمل، وأوراق الامتحانات، فيساعد في نشر المناخ اللغوي الذي يحافظ على لغتنا. وبهذه المناسبة، فإني أحيي المسئولين ومديري الدوائر الذين يغارون على اللغة، فلا يسمحون بصدور أي رسالة أو تقرير إلى العلن إلا بعد أن يطمئنوا بأنفسهم على لغة الوثائق التي تصدر عن مؤسساتهم. وإنه من المؤسف أن نرى في بلاد العروبة كثيرا من المطبوعات الممتلئة بالأخطاء اللغوية والتعبيرية دون أدنى حرص، أو التفات إلى هذا الاستهتار، ونحن نعرف من الدول الأجنبية أنه إذا أخطأ مسئول كبير في اللغة أمام البرلمان فإن الدنيا تقوم ولا تقعد في الصحافة لوقوعه في هذا الخطأ، وذلك كما قرأت مرة عن تشرشل، عندما وقع في خطأ لغوي في أثناء إلقاء بيانه أمام مجلس الأمة الإنجليزية. كما أنني أحيي وزارات الأوقاف التي تطلب من الأئمة وخطباء المساجد أن يخاطبوا مستمعيهم باللغة الفصحى لأن هذا مَعْلَمٌ مهم من معالم الحفاظ على العربية.

ولمساعدته كذلك، أي المعلم، لا بد من إكرامه، إما بتخصيص علاوة خاصة به، أو بتمييز المعلمين جميعا من سائر موظفي الدولة، لأن عملهم مهم جدا لصناعة الأجيال القادمة، ولقد علمت أن بعض الأمم تكافئ معلم لغتها الوطنية. ولنتذكر جميعا الصيحة المشهورة لبسمارك الألماني، عندما قال: لقد غلبنا الأمم بالمعلم، أو كما قال في المعنى ذاته.

5- **خاتمة**:

أما بعد، فإن الوضع الحالي للغة العربية بعامة، وعلى ألسنة ناشئتنا بخاصة، لا يسر أبدا، وهذا ليس تخمينا بل تؤيده الدراسات العلمية الميدانية. ففي دراسة(23)، لمعرفة مستوى التحصيل اللغوي للغة العربية عند طلبة الصفين الرابع والسادس الابتدائيين في مناطق رام الله والقدس وبيت لحم سنة 1991، كانت النتائج النهائية في الدراسة مخيبة للآمال. وفي دراسة أخرى(24)، لمعرفة مستوى

التحصيل في اللغة العربية عند خريجي تخصص اللغة العربية سنة 2003، كانت النتائج النهائية لهذه الدراسة مخيبة للآمال كذلك. وقد أجريت دراسات كثيرة في هذا المجال فكانت نتائجها تصب في الاتجاه نفسه من تخييب الآمال.

ومن خبرتنا المتواضعة في مجال التدريس الجامعي، فإننا نلمس بأعيننا الضعف المروع في اللغة العربية عند طلبتنا الذين يفدون إلينا من المدارس، فعندما نبدأ التعامل معهم في هذا الميدان، فلا نجد خطأً يَسُرُّ، ولا نجد تعبيرا كتابيا أو شفويا مناسبا، ثم يُمْضي من يتخصص في العربية معنا سنوات، فنجد الأخطاء الفظيعة عند المتخصصين في اللغة العربية بعد تخرجهم، و كذلك عند غير المتخصصين فيها، ولا يقتصر الضعف على القدرة التعبيرية في المخاطبة الكلامية، أي التعبير الشفوي، ولكنه يشمل التعبير الكتابي، ويشمل المعلومات التطبيقية الخاصة بالتحليل اللغوي (الإعراب). كما أننا نلمس بقوة سيطرة العامية على لغة التلاميذ الذين يلتحقون بالجامعات، وإذا طلبت من أحدهم أن يعبر عن فكرته بالفصحى فإنه يرفض أو يتردد، فإذا شرع يتكلم فستجده يقيده الخجل ثم يرتبك، أو يتلعثم، أو يتكلم كلمة بالفصحى وأخرى بالعامية، وعندما أصر عليهم أن يتحدثوا بالفصحى، سرعان ما يعلنون أنهم لا يستطيعون، تخيل ! لغتهم، عنوان شخصيتهم ! يقرون بقصورهم في التحدث بها ! هل بعد هذا من عجب ! ثم أشجعهم موضحاً لهم أن التحدث بالفصحى هو مطلب أساسي لارتقاء الطالب الجامعي، فإذا ارتقيت في مستواك العلمي فلا مناص من أن ترتقي بلغتك، فإنهم يراوغون ويزعمون أن أحدا لم يدربهم على التحدث بالفصحى من قبل، فإذا كان هذا الزعم صحيحا فماذا يصنع المعلمون في أثناء تدريسهم ؟!؟ إن لدي تجربة متواضعة في رصد ما يقوم به مدرسو اللغة العربية في المدارس، عندما كنت موجها تربويا في منطقة رام الله عام 1975، فقد كنت أزور المدرس لأستمع إلى عرض منه أمام التلاميذ، ويحصل أن يكون الدرس شرحا لنص أدبي جميل، فينطلق المدرس يشرح بالعامية، ثم ينطلق الحوار بين المعلم وتلاميذه بالعامية، فيترك النص الجميل لصاحب النص، وللعصر الذي ولد فيه، فنصبح كأننا أمام نص جديد لا صلة له بذلك النص الذي أديرت عليه الحصة الصفية. ثم أسأل المعلم : لماذا لا تشرح بالفصحى؟ فيجيبني بكل بساطة : نحن لم نعتد على هذا، ولم يطلب منا الموجه السابق هذا، والطلاب لو شرحنا لهم بالفصحى فإنهم لا يفهمون، إلى غير هذا من التَّعِلات التي لا تسمن ولا تغني من جوع. فإذا كانت الدول التي تنفق الأموال، والوزارات المخططة التي تنفق السنوات، والجامعات التي تفتتح أقساما لتدريس اللغة العربية، لتخريج معلمين أكفياء، لرفع مستوى التلاميذ في اللغة العربية، ثم تكون النتائج، في التحصيل عند التلاميذ، وعند الخريجين المتخصصين في اللغة العربية، مخيبة للآمال، فإن **هذه النتائج تجعل وضعنا اللغوي في خطر**. وإذا استفحل الخطر فإنه يولد أمراضا تستعصي على التطبيب، وقد تفتك بأمتنا، ونكون كمن جنى على نفسه بالطامة الكبرى، وعندئذ فلاتَ ساعةَ مَنْدَم.

ولهذا، فإننا نعتقد أن تغيير الوضع تغييرا إيجابيا يعتمد الاعتماد كله على المعلم، ولا أقصد معلم اللغة العربية فحسب، بل كل من له صلة بالتدريس المدرسي أو الجامعي. إنني أتطلع إلى أن تصبح المدرسة مناخا مناسبا لبذر بذور العربية الفصحى في منطق كل تلميذ وتلميذة، وكذلك الأمر في

الجامعة، وألا ينسى أي معلم، بما في ذلك المدير ونائبه والطاقم الإداري كله، إذا تعاملوا مع أي طالب، أن يكون الخطاب بالفصحى، وألا يعتري أياً منهم خجل أو تردد، لأن مثل هذا التصرف يفسد الحملة التي تقصد إلى تفصيح المناخ اللغوي في المؤسسة، وجعل العربية الفصحى أملا لا بد أن تسود ظلاله الجوَّ المدرسي أو الجامعي كله. وإذا لم يبادر قادة المؤسسات التربوية، في هذا الشأن اللغوي المهم، ليكونوا قدوة للمتعلمين في مؤسساتهم، فإن جهودنا ستذهب هباء منثورا، وستظل المحاولات في هذا الأمر مبعثا للسخرية والفشل. إن علينا جميعا، من أفراد وأسر ومؤسسات ومعلمين ووزارات ولجان وقادة، المساعدة في صناعة شعور عام بأهمية اللغة بين المجتمعات العربية. ولقد آن الأوان الآن، وليس غدا، لتهيئة الأسباب لصناعة هذا الشعور، كي نعيد للعقل العربي عطاءه وإبداعه، لأن توقف هذا العطاء قد أضر بمصالح البشرية. وإن الفرصة اليوم مواتية لإعادة تدفق هذا النهر الفكري والحضاري بما تملك من وسائل تقنية وإعلام مؤثر، ولا بد أن تكون هذه الفرصة قبل فوات الوقت. وما دامت تربيتنا تقوم على التفكير والتسخير المفجرين للإبداع، فإننا قادرون، بإذن الله، في المستقبل، على مفاجأة البشرية بما لم تصل إليه حتى الآن، والله الموفق.

الهوامش:

1) فندريس، **اللغــة**، ص1 ؛ وانظر: عبده الراجحي، **فقه اللغة في الكتب العربية**، ص64
2) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة (فصل:المُعَرَّب)**،268/1؛ وانظر: رمضان عبدالتواب، **فصول في فقه العربية**، ص ص 358- 368
3) القرآن الكريم، الإسراء، الآية 88
4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، 270/1
5) انظر: أبو الحسن الندوي، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**
6) القرآن الكريم، الأنبياء، الآية 107
7) شوقي ضيف، **العصر العباسي الأول**، ص 90
8) شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، ص 113
9) أحمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب**، 455/2
10) انظر: مقدمة المحقق **لكتاب سيبويه** (عبد السلام هارون). وانظر: **المدارس النحوية** ص57
11) انظر: حول **الكتاب** لسيبويه مقدمة المحقق.
12) انظر: حول الزمخشري : شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص283
13) الزمخشري، **المفصل في علم العربية**، ص2
14) انظر: **الفهرست** لابن النديم.
15) انظر: **كشف الظنون** لحاجي خليفة.
16) انظر: **المدارس النحوية** لشوقي ضيف ص 30؛ **مراتب النحويين** لأبي الطيب اللغوي ص54
17) انظر: **العصر العباسي الأول** ص112

18) انظر: تقرير **" أمة في خطر"** "A Nation at Risk"
19) انظر: **تقارير الأمم المتحدة حول التنمية الإنسانية العربية** 2001و2002 و 2003و 2004
20) انظر: حول مواقف المصريين من حملة نابليون ما كتبه الدكتور عبد المحسن طه بدر في تمهيد لبحثه :**"تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(1870-1938)**ص ص12-18
21) انظر: حول هذه الفكرة : مقالة بعنوان :**" أمة في خطر: مداخلة عن مناهج التعليم في الوطن العربي "** بقلم: سالم مبارك الفلق، انظر:alfalagg@yahoo.com
22) انظر: **الأدب الأندلسي** لأحمد هيكل ص40 نقلا عن (**تاريخ الأدب العربي في إسبانيا**) لبالانثيا
23) انظر:**دراسة التحصيل اللغوي عند طلبة الصفين الرابع والسادس الابتدائيين في مدارس وسط الضفة الغربية(رام الله والقدس وبيت لحم)**، القدس، 1995
24) انظر: **نوعية خريجي اللغة العربة في جامعة القدس المفتوحة– منطقة بيت لحم التعليمية بين سنوات 2000- 2003**، رام الله، 2004

المراجع:

أحمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1971
أحمد هيكل، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1979
حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، وكالة المعارف، استنبول، 1941
رمضان عبد التواب، **فصول في فقه العربية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1983/1404
الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1973/1392
الزمخشري، **المفصل في علم العربية**، دار الجيل، بيروت، 1323 هـ
سيبويه، **الكتـــاب**، طبعة عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977
السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1968
ـــــــــ ، **العصر العباسي الأول**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1966
ـــــــــ ، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1965
أبو الطيب اللغوي، **مراتب النحويين**، دار نهضة مصر، القاهرة، 1974/1394
عبد الصبور شاهين، **في علم اللغة العام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980/1400
عبد المحسن بدر، **تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(1870-1938)**، دار المعارف، القاهرة، 1963
عبده الراجحي، **فقه الكتب في اللغة العربية**، دار النهضة، بيروت، 1974
فندريس، **اللغـــة**، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950
ملخصات **تقارير الأمم المتحدة حول التنمية الإنسانية العربية** للأعوام :2001- 2005
الندوي، أبو الحسن، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1387هـ

ابن النديم ، **الفهرست**، دار المعرفة ، بيروت، 1398هـ/ 1978م
ـــــــــ ، **الفهرست**، تحقيق ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، 1982
ابن هشام ، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، القاهرة، 1955
ياسر الملاح وآخرون، **دراسة التحصيل اللغوي عند طلبة الصفين الرابع والسادس الابتدائيين في مدارس منطقة وسط الضفة الغربية (رام الله والقدس وبيت لحم)**، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، القدس، 1995
ياسر الملاح، **نوعية خريجي اللغة العربية في جامعة القدس المفتوحة – منطقة بيت لحم التعليمية بين سنوات 2000- 2003** ، بحث قدم لمؤتمر نوعية التعليم الجامعي الفلسطيني الذي نظمته جامعة القدس المفتوحة في رام الله، رام الله، 2004